الرحابك والمقاومة

قصة بقلم يحيى يخلف

هذه الليلة بح صوت الكلب وهو ينبح ، ومن خلال الصمت المطبق بدأ الصراع بين الديوك في حظيرة الدجاج .. وكانت السيكارة في يد أبيه ، تبدو ـ في الغرفة شبه المظلمة ـ مثل حشرة القديحة التي تملأ السهول الشاسعة .. واما السراج النحيل فقد كان يختنق فيما تكاثف السناج على زجاجته .

وضع ابوه السيكارة على حافة الشباك ، وخلع القمباز ، وعلقه ، ثم بدأ يخلع القميص .

ـ لماذا لم تنم بعد .. ؟

انقلب الى الجهة الاخرى ، وغطى نفسه باللحاف ، لكنه ظل مفتح العينين . رأى خيال ابيه على الحائط وهو يخلع السروال ، ويلبس الثوب الفضفاض ، ثم يجلس أمام الكانون ، ويحرك الجمرات حول دلة القهوة ، فعاد ينقلب على جنبه مرة آخرى ، ويشد اللحاف الى رأسه .

ـ لماذا لا تنام يا ولد .. من اول الليل وانت تتقلب .. لماذا لا تنام ؟

صمت .. بل انه تقوقع تحت اللحاف حتى لامست ركبتاه ذقنه ، وعاد ابوه يقول : ـ هل انت جبان ..؟

بدا له مقبض دلة القهوة النحاسي مثل فوهة الرشاش الذي كان يعلق بكتف كل جندي من الجنود الذين جاءوا اليوم للتفتيش .

ـ ... تخاف من اليهود ؟

هز رأسه بالنفي ، واجاب : ـ لست خائفا ..

كانوا قد جاءوا بعد العصر ، فتشوا كل شيء ، دحرجوا خابية الماء ، وقلبوا الفراش، وهدموا خم الدجاج ، وخلية النحل ... كانوا يبحثون عن الاستاذ ...

ـ يابا ... لماذا يبحثون عن الاستاذ سفيان ؟

رمقه ابوه بعينين صغيرتين غائرتين ، ولم يجب .

كان يعرف أن اباه لم يكن يحب الاستاذ سفيان ، .. زمان .. قبل الاحتلال حدث خلاف بينهما ، فكتب ابوه عريضة ، وختمها بخاتمه النحاسي ، ووقع عليها كثير من اهل البلد ، وارسلوها الى مديريه التعليم لنقله من القرية . . أما الان ، فالامر يختلف تماما ، لان اباه رفض ان يدل اليهود على مكان الاستاذ سفيان بالرغم من الخلاف الذي وقع بينهما .

ـ لماذا لا تنام ؟.. يجب أن تصحو مبكرا لتقطف الباميا .

عاد ينقلب على جنبه ، وجاءه خوار البقرة في الزريبة التي تفوح منها رائحة الحشيش والبرسيم ، لكنه ظل يحدق عبر النافذة .

يوم ذهب الطلاب الى المدرسة بعد الاحتلال لاول مرة ، حضر كل المعلمين ما عدا الاستاذ سفيان ، وفي الحصة الرابعة جاءت سيارة جيب يهودية ، انفتح بابها ، وانزلوه منها ، ودفعوه الى باب المدرسة دفعا . وقال عريف الصف ان الاستاذ سفيان يرفض أن يداوم لان اليهود سيغيرون المناهج العربية .

عندما دخل ، صاح العريف : قيام .

وقفنا ، بدأ يتفرس في وجوهنا ، ثم أمسك بالطبشورة وكتب على اللوح : يسقط الاحتلال .. ثم ابتسم لنا وقفز من النافذة .. وراح .

ـ هل صحيح يا أبي ان الاستاذ سفيان هو قائد الفدائيين ؟

زفر أبوه في غيظ ، ولم يجبه ، بل وقف وبدأ يقيم الصلاة .

رفع يديه الى اعلى ، وانزلهما .. « الله اكبر » .

وبدأ يقرأ الفاتحة بصوت جهوري حزين ..

أحس ان أباه يبكي .. فما الذي يجعل ذقنه ترتعش اذن ؟

أنهى الركعة الثانية ، وسلم على الجانبين ، وبدأ يتمتم وحبات المسبحة تتتابع بين أصابعه ...

ـ لماذا لم تصل في المسجد ؟

مسح ذقنه بأصابعه ، وقال كأنما يخاطب نفسه :

ـ هذا الولد لا يكف عن الكلام ، ودمي بدأ يفور ، أسكت .. والا ضربتك بالحزام .

أحس بالنذير في صوت الشيخ ، فانطوى على نفسه ، وصمت .

ومرة أخرى ، عاد صوت الخوار في الزريبة .. وظل يفكر بالاستاذ سفيان ..

.. أنا أعرف أين يختبىء .. هناك في المغارة .. هو .. ومسعود .. وأبو ابراهيم .. والوحش .. وأدهم .. وأم سليم تنقل لهم الماء والطعام ، في الليل يزرعون الالغام ، وفي الصباح تمر الدبابات اليهودية من فوقها فتنفجر وتتناثر .

ذبل السراج ، فامتلأت الغرفة بالشحوب ، وخيل اليه انه يرى كتل الظلام تتحرك عبر النافذة ، بينما ظل الكلب ينبح بصوت مبحوح .

طرق الباب فجأة ، فازداد التصاقه بالفراش ، ومرت فترة من الصمت قبل أن يتساءل أبوه : مين ؟

جاء من وراء الباب صوت الشيخ قاسم ، أكبر رجال البلد سنا : ـ أنا ..

قام أبوه ، فأشعل السراج من جديد ، وفتح الباب ، وعبر الشيخ قاسم الى الداخل ...

شاهد ظله على الجدار ، وعندما جلس بدا ظله محنيا ..

هذا هو الشيخ قاسم ، الرجل التقي الذي يتنبأ بالمجهول ، والذي جاوز عمره المئة عام ... يحفظ ألف قصة وقصة ، والاصفاء لحديثه أمنية أولاد بلدنا ..

ـ لماذا تبدو مغموما يا حضرة المختار ؟

زفر أبوه بغيظ ، وهو يجيب :

ـ اليهود الكفرة يعيثون في المسجد فسادا .

ثم اطرق ، ووضع رأسه بين يديه ، فبدا كأنما ينتحب ، فعاد الشيخ قاسم يقول :

ـ عسكروا في المسجد اعتقادا منهم ان الفدائيين لن يقاوموا بضربهم ، لكيلا يتهدم بيت الله .

بدأ أبوه يعبث بلحيته ، ثم قال :

ـ انهم يسكرون أمام المنبر ، وقد رفعنا الامر للحاكم العسكري ، ولكن ذلك لن يفيد شيئا .

تناول الشيخ قاسم دلة القهوة السادة ، فصب فنجانا ، شربه دفعة واحدة ، وقال :

ـ ولكن الاستاذ سفيان سيرميهم بقنابل من سجيل .

ود لو ينقلب على جنبه الاخر ليشاهد وجه أبيه ، وأغمض عينيه للحظات ، وتخيل أباه يعانق الاستاذ سفيان ويشد على يده ، ويقول له : « انت بطل .. انت ابن بلدنا الطيب » .

وجاء صوت أبيه :

ـ يا خوف قلبي من أن تبقى الامور على حالها ...

انقلب على جنبه ، فشاهد الشيخ قاسم يعبس ، ويقول بغضب : ـ عندما يبلغ الزمان ..

قاطعه أبوه بحدة : ـ كف عن قول الخرافات .

ازداد عبوس الشيخ قاسم ، وقال بثقة :

ـ ... ويلتقي الجمعان في سهل بيسان ، فينتصر جمال الدين كما انتصر صلاح الدين .

دوى انفجار زلزل الغرفة ، وتبعه طلقات رشاشات ..

قفز والتصق بأبيه ، وبدا كل شيء مرعبا ورهيبا .. تصاعدت طلقات الرشاشات ، ودوت انفجارات أخرى ، وظلت الاشياء تهتز ، والافق يندلع فيه اللهب .

ـ الفدائيون يهجمون .

أضاء الافق بقنابل مضيئة ، وأخذت ظلالهم تتلاعب على الجدران .

قال الشيخ قاسم :

ـ اليهود يطلبون النجدة .

انهمر رصاص الرشاشات ، وكانت عيناه تطلان من وراء كتف أبيه الى وجه الشيخ قاسم الذي ينعكس عليه التوهج ..

فجأة !!.. كفت الانفجارات وطلقات الرصاص دفعة واحدة .

ولم يعد ثمة الا الصمت ، والافق الاحمر المضيء .

ـ الفدائيون ينسحبون بعد انتهاء المهمة .

هتف الشيخ قاسم ، وفي الوقت نفسه جاء أزيز طائرة هليكوبتر .

قال أبوه : ـ لقد وصلت لليهود نجدة .

أجابه الشيخ قاسم : أهرب يا مختار ، سوف يلقون المسؤولية عليك .. اليهود أولاد حرام ليس في قلبهم شفقة ولا رحمة .

ازداد التصاقه بأبيه ، فيما ازداد اقتراب طائرة الهليكوبتر ..

وقف الشيخ قاسم وأطل من النافذة ، ثم هتف :

ـ الطائرة تهبط .. هيا يا مختار .. أهرب .. أهرب .

قست ملامح ابيه ، وقال بعصبية :

ـ لن أهرب .. قلت لك لن أهرب .

بكى وهو يلتصق بكتفه ، فالتفت اليه كأنما أحس به لاول مرة، فقربه اليه برفق ، وقال له دون ان يفارق العبوس وجهه :

ـ تبكي مثل النسوان .. يا عيبك !!

كف عن البكاء ، فأشار الى الفراش : ـ عد الى فراشك .

عاد ، ودس جسده تحت اللحاف ، وغطى رأسه ، واذ ذاك تذكر لاول مرة أمه التي رحلت في الشتاء الماضي ..

* * *

أفاق على يد تهزه بعنف ، واذ فتح عينيه ، ابصر الشيخ قاسم يجذبه بشدة .. وقف بذعر ، فصرخ به الشيخ قاسم :

ـ أخرج يا بني .. هيا .

عبر البوابة الى الخارج وهو يتعثر ، ومن خلال النعاس شاهد جموعا من رجال القرية في ساحة البيادر ، فسأل الشيخ قاسم وهو يجذب قمبازه : ـ أين أبي ؟

تلعثم الشيخ ، وشده ، ثم قال بعجلة :

ـ سيأتي بعد قليل .. اليهود طوقوا البلد .

أحس بقشعريرة ، وارتفعت الهمهمة بين الرجال ، فيما ظل أربعة من الجنود يصوبون رشاشاتهم .

ولم يدر كم من الوقت مضى ، حين وصلت سيارة جيب نزل منها ابوه بحراسة جنديين ... حاول ان يركض اليه ، لكن يدي الشيخ قاسم جذبتاه .

حدق بخوف وذهول في وجه أبيه المتورم ، وشعر بأنه يكاد يبكي عندما تصور انهم صفعوا أباه وبصقوا في وجهه ..

حاول ان ينفلت من بين يدي الشيخ قاسم مرة اخرى ، لكنه لم يفلح . تقدم أحد الجنود وهو يحمل مكبر صوت ، وبدأ يتكلم ، لم يستطع أن يتابع لهجته المعوجة ، واخذ الجنود يدفعون الرجال الى الخلف . وحين ضاع بين الجموع ، حاول عبثا ان يرى أباه ، لكنه سمع دوي انفجار ، وامتلأ الجو بالدخان والتراب ، فقال احد الرجال : لقد نسفوا بيت المختار .

صاح بأعلى صوته « يابا .. اين انت ؟ » .

ومرة أخرى وجد الشيخ قاسم يمسك بيده ، فصاح به :

ـ شيخ قاسم .. لماذا نسفوا بيتنا ؟

انحنى الشيخ ، وحدق به بثبات وقال :

ـ لان أباك لم يتعاون معهم .. يجب ان تفخر بذلك يا بني .

عاد يصرخ بالحاح :

ـ شيخ قاسم .. أين أبي ؟.

ربت الشيخ على كتفه وأجابه :

ـ يا بني بعد قليل يرحل الجنود فنذهب اليه .

* * *

تحت العريشة التي تتوسط (الحكورة) كانا يجلسان .. كان ابوه يدخن السيكارة في صمت ، ويلف الحطة حول وجهه المتورم ..

وأما الرجال ، فقد كانوا يزيلون الانقاض ، ويبنون البيت من جديد ، فيما أخذ الشيخ قاسم يرفع طرفي قمبازه الى وسطه ، ويشمر عن ذراعيه بينهم .

التفت أبوه اليه ، وسأله لاول مرة منذ ليلة أمس :

ـ .. تخاف ..؟

هز رأسه بالنفي بالرغم من الدوي الذي لا يزال يملأ اذنيه ، ففوجيء بأبيه يبتسم .. ويقول :

ـ هل ترى ابناء بلدنا الطيبين .. لقد تبرعوا بأنفسهم لبناء بيتنا من جديد .

وأخذ نفسا طويلا من السيكارة ، ونفثه وهو يحدق بقلائد الفلفل الاحمر التي تتعلق بزاوية العريشة ، ثم قال :

ـ يا بني .. ذات يوم ستكون رجلا كبيرا ، ولكنك لن تنسى هذه الليلة ابدا .. الليلة التي قتل بها الفدائيون عشرين جنديا يهوديا ، كانوا يدنسون المسجد ، بسبع دقائق .

ظل يحدق بوجهه المتورم ، وود أن يسأله عما فعل به الجنود ، ولماذا لم يخبرهم عن مكان الاستاذ سفيان وبقية الرجال رغم الضرب والتعذيب ، لكنه عدل عن ذلك ، وود لو يعانقه ويقول له أشياء كثيرة.

اربد — يحيى يخلف

استراتيجية العمل لتحرير فلسطين

تأليف

الدكتور يوسف صايغ

دراسة جادة وهامة تصدر في الوقت المناسب

* * *

من النكسة ... الى الثورة

تأليف

الدكتور نديم البيطار

اول دراسة عميقة لجذور النكسة الفكرية ، وللانحرافات التي قادت اليها

دار الطليعة ـ ص.ب ١٨١٣